

مِثَارُ الْفِكْرِ الْعَرَبِيِّ

مِراجِعَاتٌ وَمُلَخِّصٌ عَنْ أَهَمِّ الْمَوْلَفَاتِ لِأَوْرُوبِيَّةٍ

* *

العقل والادِّعاء

Reason and Belief : By Sir Oliver Lodge

كتاب نشرته شركة (Methuen & Co. Ltd.) بلندن

السير أوليفر لودج من كبار العلماء الذين اشتغلوا بالرياضيات والطبيعات. وقد لا نبالغ إذا قلنا بأنه من كبار علماء العصر الحاضر في انحاء الدنيا كلها . فإن آثاره في العلوم الرياضية وابتكاراته الكثيرة في علم الفيزيكا مما يتوج به البحث العلمى في هذا الزمان . هذا ما توحى اليك به نظرك في سير لودج اذا اعتبرت جهوده العلمية الصرفة . أما اذا نظرت فيه كفيلسوف نزل الى الدرك الاسفل من الفلاسفة الذين يعتقدون بكثير من الاساطير التقليدية التى لا يؤيدها العلم ولا يقبلها . وعندى أن أغرب ما يرى في سير لودج نزعه الى التوفيق بين التقاليد المتقولة وبين مستكشفات العلوم الحديثة بأسلوب لا تستطيع أن تحكم فيه حكماً مقطوعاً بصحته، أهو أسلوب علمى أم أسلوب نظرى أم مزيج من كليهما ؟

على انى لا أريد أن أذهب بالقارىء بعيداً وأن أغوص معه فى تلك الاعماق التى غاص فيها السير لودج واتدرج به من مبادئ العصور الاولى الى الوثنيات الى الدين النصرانى وأتمشى معه فى التوفيق بين مستكشفات العلم الحديث ومبادئ الدين النصرانى ، فانى على الرغم من اعتقادى بأن هذه الابحاث عقيمة غير مثمرة مقتنعة تمام الاقتناع بأنها مفسدة لنظام العقل الانسانى . فإن الخلط بين الذاتيات والموضوعيات، خلط فى الواقع بين كفايات العقل البشرى ، ما تنتج إلا نتائج تساويه تهويشاً واختلاطاً .

لهذا أبعد القارىء عن التردى فى مثل هذه الجمأة الفكرية وأرجع به الى

نظريتين دافع عنهما سير لودج جهد مستطاعه، وأمعن في شرحهما إمعاناً لا مبرر له في نظرنا إلا عجزه عن اثباتهما بالأسلوب العلمي . الأولى نظرية تناسخ الارواح ، والثانية نظرية الروح وحلولها في الجسم البشري عندما بلغ من التدرج النشوي مبلغاً ما .

وقبل ان نشرح لك ما يرى سير لودج من رأى تلقاء هاتين المشككتين الكبيرتين ، نمضى في شرح بعض نظرياته التي اراد أن يوفق من طريقها بين العقل وبين الدين . ولانرى من مثال نصربه لك على المنحى الذى انتحاه هذا الملامه الكبير، الا بما حاول أن يعال به نظرية آدم ونظرية الخطيئة ، وقال فى آدم ص ٣٤ مايلي :

« لقد مضى خلال الادوار النشوية التي قلب فيها الانسان ، عهد تحقق فيه انه اصبح حراً في تحديد افعاله وأعماله . ولما حقق هذا عرف بالضرورة معنى الخير ومعنى الشر وفرق بينهما ، واستطاع أن يختار اى الطريقين يتبع ، وأدرك بوجدانه وغريزة الفرق بين الخطأ والصواب ، ومن ثم أخذ يستخدم القوى التي حبته بها الطبيعة . ومن طريق هذه القوى امكنه ان يدرك العظمة ، كما امكنه أن يدرك الخطا ، التي تترتب على هبة الحرية ، ووقف لأول مرة على العلاقة التي تربطه بيولوجيا بالحيوانات ، ونفسيا بالآلهة »

« وهذه القوة الادراكية العظيمة التي استطاع الانسان ان يكون من طريقها حراً مختاراً ، وهي ظاهرة من اخص ظواهر انسانيته ، لا بد من ان تكون قد اشعت اضواؤها القوية فى عقل نابغة عبترى من افراد النوع البشرى ، وكان شاعراً أو عرافاً أو كاشفاً للغيب ، نفثت فيه ازواح الحيوية موحياتها بقوة وصلابة . فهل نستطيع ان نسمي هذا المراف « الرجل الاول » الذى نفث فيه الروح القدسي فأصبح روحاً حياً ؟ وهو بالطبيعة لا يعنى « بالرجل الاول » سوى آدم .

ثم قال فى ص ٣٥ ممايلي

« ولا مشاحة فى أن العصر الذى تلى هذا الحادث هو عصر « الخطيئة »

لان الانسان لا شبهة قد برهن اذ ذاك على أنه غير جدير بقوة الكشف التي أعطى اياها، والتي كانت نتاجا لرقبه واستعلائه .»

ثم قال في ص ٣٦ — « اما وقد تزود الانسان بهذه القوة ، القوة على فعل الشر ، فانه اخذ يستخدمها فخطأ وهوى . وهنا دخلت الخطيئة في تاريخه ، وهي عمل ما تدرك انه خطأ . اما قبل هذا العهد فان الانسان عاش بريئاً نقيّاً صافياً كالحيوّانات ، وفي حالة لا يتحمل فيها مسؤولية ولا يعرف فيها معنى البراءة . وتلك حال كان لا بد من ان يخرج منها الانسان ليلاج عالم المعرفة والاحزان ، اذا ما كان من الضروري ان تتطعم الصورة الحيوانية بروح قدسية تثبت فيها » هذا هو آدم لودج وهذه هي خطيئة الانسان في نظره . وهذه اقوال تبعد عن الاساليب العلمية بقدر ما تبعد عن مفهوم آدم والخطيئة كما عرفها الاديان جميعا . بل هذا كلام تقبين فيه من أثر الطفرة مالا يقبله العلم النشئ الحديث . وعلى هذا نجد أن سير لودج عالم رياضي فيزيقي نشئ ديني اسطوري في آن . ما بعد هذا نشرح لك نظرية سير لودج في تناسخ الأرواح . ولا ريبه مطلقاً في ان معتقده في تناسخ آت من طريق معتقده في الأرواح وفي مخاطبتها واتصالها بهذا العالم . فهو يعتقد بان الروح ينتقل من جسم الى جسم وانه يتطهر في سرى تناسخاته الكثيرة لينبع في النهاية الى الدرجة التي يكون عندها قادرا على الاندماج في الحقيقة الأخيرة . وهذا معتقد قديم عرفه اهل الهند ومصر القديمة واليونان . معتقد لم يقم عليه دليل علمي ولا شبه علمي بل هي ملاسبات عقلية لا دليل عليها ولا برهان يزكيها .

وهنا نسائل سير لودج كيف تختلف الأمم من حيث الأخلاق وتختص كل أمة بطابع معين لا تشاركها فيه أمة أخرى اذا كانت الارواح تعود الى هذا العالم ثانية لتتقمص ابدانا ليس لها اختيار في تقمصها ؟ وهل الجسم يؤثر في الروح بما يحدث اخلاقا بعينها ؟ واذا صح هذا فكيف يتأثر الخالد بالفاني ؟ هذه مشكلات لا نظن أن سير لودج يجد في دفعها من السهولة ما وجد في اختراع فكرة آدم ثم نعود الى النظرية الثانية . فنجد أن سير لودج يسلم بان الانسان يمت إلى

عالم الحيوان بأدنى آصرة وأقرب نسب ! بل يسلم بأن الانسان حيوان ارتقى فوق
أفقه الاصلى بروح حلت فيه عندما بلغ من النشوء مبلغاً خاصاً . فكأنه يتصور
تصوراً أن الانسان لما بلغ من حسن الترتيب واكتمال النسق مبلغاً خاصاً ،
سكنته الروح القدسية لترفعه فوق أفق الحيوان . واني لاعجب كيف أن سيرلودج
يستطيع التدليل علمياً على أن الروح سكنت الجسم الحيواني بعد أن بلغ مدرجاً
خاصاً من النشوء ؟ بل كيف يستطيع أن يوفق بين الأسلوب العلمى وبين هذه
الاقوال الغريبة التى يرسلها ارشالا في جمل خطابية وأبيات من الشعر ، فيها من
جمال الأسارب وحسن السبك بقدر ما فيها من البعد عن العلم الذى يمثله سيرلودج
في ناحية أخرى من نواحي نبوغه المتضارب الصور الكثير الالوان

* * *

فصل الفلاسفة

The Story of Philosophy : The lives and opinions of the greater
philosophers : By Will Durant

Ernest Ben Ltd. London كتاب نشرته شركة ارنست بن بلندن

لا شك مطلقاً في أن عنوان هذا الكتاب يدل دلالة واضحة على أن
موضوعه غير محدود بحد ولا معين بنظرة خاصة يمكن أن تتخذ قاعدة لبحث
الكتاب . فإن كتاباً يقال في عنوانه انه في « حياة عظام الفلاسفة وآرائهم » .
لا محالة يؤدي الى الاعتقاد لأول وهلة أن قاعدة الحكم في هؤلاء الفلاسفة
اختيارى صرف ، راجع الى مجرد ما يرى الكاتب في الفلاسفة الذين سيتناولهم
من رأى قد يخالفه فيه الكثيرون ممن يكون على درس تاريخ الفلسفة
وحياة الفلاسفة .

فإن كاتباً يختار مثل هذا الموضوع ، مثله كمثل من يحاول أن يحكم في لوحات
خطتها أيدي كثير من الفنانين تختلف أذواقهم ونزعاتهم باختلاف العصور . فإن
حكمه يكون اختيارياً صرفاً لا قاعدة تحكمه ، ولا حدود تحصره . فإذا علمنا أن
الفنانين والفلاسفة ، والقدماء منهم على الاخص ، قد تناوبوا على مدى الازمان
درجات الصعود والهبوط ، فمن عرف منهم في عصر واشتهر أمره وذاع صيته ،

نسى في عصر آخر وأهمل ذكره ، أيقنا بأن الحكم فيمن هم أعظم الفلاسفة أو الفنانين ، بعيد عن أن يتقيد بحكم أو يجري على قاعدة . وما مثل اسبينوزا عنما يبعد . فإن هذا الفيلسوف الكبير بعد أن نسي وأهمل السنين الطوال اخذت مدارس الفلسفة الحديثة تبتم بشأنه مرة أخرى ويكب الفلاسفة والمتفلسفون على قراءة مؤلفاته وتحليل شخصيته وفلسفته . ومن يدري لعل اسبينوزا يحمل في مثل هذه الفورة الحديثة من الآراء ما لم يرو من المذاهب ما لم يذهب اليها ومن التأملات ما كان يبعد عن أن يمر بذهنه أو يخطر بخاطره .

على أنك لا تلبث أن تتأثر بهذه الفكرة من عنوان الكتاب حتى تزيد اقتناعاً بها اذا ما استعمقت فيه وغصت في عبابه الزاخر . والحقيقة أن «ستر» و«بل ديورانت» قد استطاع ان يبعث كثيراً من فلاسفته الذين أحبهم ، بل أعاد الحياة الى الكثيرين منهم . فأنك اذا قرأت ما كتب في اسبينوزا على الاخص أحببت أن تقرأ كل ما كتب اسبينوزا وأن تشارك اسبينوزا آلامه ومسيراته . ولا جرم أن هذا أقصى ما يطمع أن يناله كاتب من قارئ . وعندى أن هذا وحده كاف لان يجعل للكتاب قيمة كبرى وخطراً عظيماً . بل لا اتسكأ في القول بأننا في الشرق أحوج ما نكون الى هذا الاسلوب التشويقي الغريب الذي لم يستطع كاتب أن يحظى به حتى الآن . غير أن هذا لا يوازي في نظري خطأ المؤلف في اختيار عنوان الكتاب . ولو اقتصر هذا الخطأ على العنوان وحده ولم يمتد الى صلب الموضوع لما أعرناه التفاتاً . غير أنه امتد الى الباب امتداداً يبرر كل ما وطأنا به من كلام في هذا الكتاب . فمن بين أصاغر الفلاسفة في نظر «ديورانت» ديكارت وليبنز وهيجل ، بيد أن لوك وبركلي وهيوم لم يستحقوا من صفحات «ديورانت» الا مقدمات تمهيدية مقتضبة لا تروى ظامناً ولا تنفع غليلاً .

ومن الجائز أن هؤلاء الفلاسفة وأمثالهم لم يحيو في كتاب «ديورانت» إلا لان أعادتهم الى الحياة أصعب من إعادة غيرهم وأعسر سببلاً . فكأن «ديورانت» عن احياهم وبعثهم ، أعمل من بقائهم حيث هم مقبورون في طيات الزمان ، من ضمير عناصرهم الفلسفية بالذات .

أما إذا اتخذت عدد الصفحات التي اختص بها كل فيلسوف من هذا الكتاب قاعدة لقياس العظمة ألفيت أن فولتير أعظم الفلاسفة جميعاً في نظر المؤلف. وإن عظمة نيتشه توازي عظمة كانت. وهربرت سبنسر يوازي اسطوطاليس وباكون وشوبنهاور يساويان اسبينوزا. فلكل من هؤلاء أربعون أو خمسة وأربعون صحيفة. ولفولتير وحده ثمانية وخمسون! وهذه نسبة يقف أمامها الباحث حائراً. بل لا نعلم أي مذهب أو فكرة في الفلسفة من شأنها أن تعلى فولتير إلى هذه المنزلة العظيمة التي لم يدان فيها فيلسوف أو مفكر منذ بدء النائية إلى هذا العصر؟ على أن المستر «ديوارنت» بعض المذر إذا اعتبرنا أن تقديره للفلاسفة محدود بآثارهم الاجتماعية، وتأثيرهم في فروع علم الاجتماع. ولهذا يضع مستر «برتراند رسل» في القمة ويعتبره أكبر فلاسفة الإنجليز وأقدر مفكرهم في العصر الحاضر.

غير أنك تعميلاً تستطيع أن تنفي عن أي فيلسوف من عظام الفلاسفة أثره في عالم الاجتماع. وإذا كان هذا هو المقياس الذي أراد المؤلف أن يحدو عليه، فكيف به يضع فولتير في مكان انكره على أوغست كونت؟

على أن الكتاب مهما كان فيه من امثال هذه الهنات، ومهما احتوى من الأشياء التي يصح ان تكون عرضة للنقد، فإن مستر «ديوارنت» قد نجح ولأول مرة في تاريخ التأليف في مذاهب الفلسفة في كتابة مقدمة للفلسفة يستفيد منها كل الناس كما ينتفع بها الاختصاصيون.

انفصال الجنس في الانسان والحيوان

Sex in Man and animals. By John R. Baker. With a Preface by Julian Huxley.

كتاب طبعته شركة (Routledge and Co.) بلندن. مؤلفه مستر جون باكر.

من أخص ما يمتاز به هذا الكتاب وضوح الفكرة وطلاوة الأسلوب وسلاسته على ما في الموضوع نفسه من استغلاق وعمق. ومن أمتع ما تتمتع عليه في هذا المؤلف الطريف جدة الطريقة التي استطاع بها المؤلف أن يعالج الحقائق التي يمكن بها تفسير ملخصات هذا البحث الذي يعتبر من أحدث ما تناول العلم في العصور الأخيرة.

أما اذا أخذت في قراءة هذا الكتاب . فلا تلبث الا قليلا حتى تعتقد أن سرّاً من أغواق الاسرار التي ظلت من الانغاز المستعصية على الانسان قد أخذت رموزه تنحل أمام العقل رمزاً بعد رمز ، وأبوابه تفتح باباً بعد آخر . على انك اذا فرغت من قراءته تجد أن عقلك قد تأثر بفكرة أخرى حصلها أن العلم الانساني لا يزال أمامه من المستغلات ما يطلب من العقل حلها ، ليبلغ من المعرفة درجة يمكنه عندها أن يتقى كثيراً من الاخطاء التي تتور مباحثه العلمية .

لم تصبح الذكورة والانوثة من الاشياء التي يفصل بينها ذلك التصور القديم الذي كان يوحى اليها بأن الذكر والانثى شيئا من منفصلان انفصالا عنصرياً بعيداً . فقد كشف العلم الحديث انه على الرغم مما هو معروف من ملازمة الذكورة للانوثة أو بالعكس في بعض الحالات ، فإن من الحيوانات ما ينتقل من احدى هاتين الحالتين للآخرى . فإن نوع السمك المسمى « حيزبون » - Hagfish - عند ما يكون صغير الحجم يلوح كأنه جميعه في حلة الذكورة ثم اذا نما لابسته حالات الانوثة . وهناك نوع من صليب البحر - أو نجم البحر - يسمى اصطلاحاً « أسترينا غيبوزا » - Asterina gibbosa - قد يكون ذكراً أو أنثى أو كليهما معاً تبعاً للسن وتأثير الحالات الطبيعية . ولديك أنواع السرطان فإنها عندما تغزوها الساكولينا - Sacculina - لتعيش متطفلة عليها ، وهي من الطفيليات التي تغير كثيراً من صفات مضيفها - Host - فإنها قد تتغير من ذكر إلى أنثى ، بل قد تتغير بعض مظاهر الذكورة فيها وتنقلب إلى أنوثة صرفة . ويقول العلامة بولتزر - Baltzer - ان برقات الدودة الخضراء المسماة « بونيليا » Bonellia تنمو إذا بقيت في الطين إلى انثى كبريات الاحجام ، ولكنها تصبح ذكراً قزمية ضعيفة اذا ظلت عالة في خراطيم افرادها البالغة :

ان اكثر المشتغلين بهذه الابحاث يعتقدون بان الجنس انما يتعين ، وذلك في بعض الاصول الحيوانية على الاقل ، بحالتي وجود أو فقدان تلك الكروموسومات التي تدعى كروموسومات الجنس Sex-Chromosomes في الخلايا الجرثومية Germ-cells . ففي بعض الحيوانات ، ومنها الحيوانات الثديية ، تحتوي أنوية

البويضات الانثوية على كروموسومات جنسية خاصة ، يمكن أن توجد أيضاً في نصف الحيويونيات المنوية ولا توجد في النصف الآخر . فإذا اتحدت بويضة بحيويين منوي وكان في كليهما كروموسومات جنسية يكون الناتج أنثى . ولكن إذا اتحدت بويضة فيها كروموسومات جنسية بحيويين منوي خلو من هذه الكروموسومات يكون الناتج ذكراً .

أما في غير الثدييات من الأصول الحيوانية ، كالطيور وأنواع العث ، فإن الخلايا المنوية كلها متشابهة ، ولكن يوجد نوعان من الخلايا البيضية Egg-cells ، في بعضها كروموسومات جنسية والبعض الآخر خلو منها . ومما هو جدير بالاعتبار أن الغالب على مقتعد الطبيعيين أن كروموسومات الجنس لا تعين جنسية الناتج لا غير ، بل أنها ممكن لكثير من الصفات المتورثة ، التي يدعوها المشتغلون بهذه الابحاث « الصفات ذوات الترابط الجندى » Sex-linked كالمعى في الظلام — العشى — والتدمية — وهي نزول كميات كبيرة من الدم من الجسم — وكلا الصفتين خاصتين بالذكور .

وهناك نظرية لتعيين الجنس أكثر ارتباطاً بالوظائف التناسلية وأكثر قرابة لعلم الفزيولوجيا . وتعلل بمديد من النظريات المتخالطة في الكيمياء وفي مقدار الاستعداد لتمثيل الاجسام للأغذية وغيرها .

...

أما القسم الذي تناول فيه المؤلف الكلام في النتائج التي وصلت اليه التجارب في العث والضفادع والحمام والارانب والفيران اذ استطاع المحربون ان يحسبوا في نسبة ما تنتج من الجنسين ذكورا واناثاً فممتع مفيد. ولا جرم ان هذه التجارب سيكون لها قيمة تجارية كبيرة اذا استطاع الباحثون تطبيقها على الدجاج وغيره من الحيوانات الداجنة. ولا جرم انها تكون اكثر قيمة اذا امكن تطبيقها على النوع الانسانى . ولا ريبه مطلقاً في ان الاحتكام في جنسية النسل من طريق العلم قد اخذ يقترب من عالم الانسان خطوة بعد اخرى .

ولقد استعرض المؤلف كثيراً من المشكلات العلمية الدقيقة بكثير من اللباقة

والمهارة حتى ان القارئ ليتخيل انه مكب على قراءة قصة مشوقة، لا على موضوع علمي عويص . ومثالها البحث الذي عقده في « التناسل العذري الصناعي » Artificial parthenogenesis والمهرمونات التناسلية ونشوء الصفات الجنسية الثانوية الى غير ذلك من موضوعات العلم العويصة .

وليس في الكتاب من شيء يرى فيه الباحث ما يخالف اساليب العلم الحديث ، لولا انه عمد الى الصفات «الروحية» يتخذها من الوسائل التي تقرب الجنسين بعضهما من بعض، ويحمل عليها بعض الظواهر الطبيعية في التناسل . نعم لا ننكر ان المظاهر الخارجية والحب في عالم الحيوان له اثره في التناسليات، غير ان هذا الاثر لا يتعدى احكام الروابط النفسية بين الاحياء بعد ان يهبط الميل الفزيولوجي الى درجة العدم . وهذا رأى الاستاذ جوليان هكسلى المعروف . وعندى أن هذا الرأى يمكن تطبيقه على السلالات لاعلى الافراد والازواج فقط . والحق أن اضعف ناحية من هذا الكتاب هى تلك الناحية التي حاول المؤلف أن يتخذ فيها الصفات النفسية كمؤثرات تحدث في عالم التناسل آثارا ما .

كذلك يعتقد المؤلف أن الفرق بين المرأة والرجل راجع فى الاكثر الى التربية والنشأة . والحق أن الفروق تكوينية تتناول التركيب الجينوى والمضوى . وهذا ما لاشبهه فيه وهو ما يؤيده الاستاذ ارثر طودسون فى كل ما يكتب فى هذا الموضوع

